دروس من فكر الشهيد مطهري - تلخيص وتحرير.





فلسفة التاريخ ونهضة المهدي (عج)



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

مركز نون للتأليف والترجمة

فلسفة التاريخ
ونهضة المهدي ﷺ

الكتاب: فلسفة التاريخ ونهضة المهدي عليه السلام

إعداد ونشر مركز نون للتأليف والترجمة

الطبعة الأولى اب 2005م - 1426هـ

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

فلسفة التاريخ ونهضة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف

إعداد

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org



الفصل الأول: الاتجاه الديالكتيكي

١ ـ كيف يتكوّن المجتمع؟

٢ ـ كيف ينظر القرآن إلى التاريخ؟

٣ ـ كيف تتمّ التحوّلات التاريخيّة بناءً على الاتجاه الديالكتيكيّ؟

٤ ـ على أيّ أساس تقوم العلاقات بين أفراد المجتمع؟

٥ ـ ما المقصود من صراع التناقضات والمثلّث الهيغليّ؟

٦ ـ كيف يكسب النضال مشروعيّته وقدسيّته؟

إمكانية دراسة التاريخ والمجتمع:

تختلف النظرة لدى المفكرين إلى أحداث التاريخ، ويمكننا أن نشخّص نظريّتين متباينتين في التعامل مع التطوّرات والتغيّرات التاريخية:

. النظريّة الأولى:

يعتقد أصحابها أنّ أحداثَ التاريخ ليست سوى سلسلةٍ من المصادفات والاتفاقات التي لا تنضبط تحت قاعدة عامّة[1]. ويتمّ ذلك وفق البيان التالي:

يتكوّن المجتمع من أفراد بطبائعَ شخصيّةٍ وخاصّة، تؤدّي حركتهم ونشاطاتهم النابعة من دوافع فرديّة إلى سلسلة من المصادفات. تسبّب هذه المصادفاتُ التغييراتِ التاريخيّة.

وإذا لم يكن للمجتمع شخصيّة مستقلّة، وقامت مسيرته على مجموعة إتفاقات: بحيث لم تنضبط أحداث التاريخ تحت قاعدة عامّة، فإنّ التاريخ لا يكون صالحاً للدراسة ولا يشكّل موضوعاً للفكر، فيفتقد بالنتيجة لأيّ عطاء تربويّ.

(١) ليس المراد من الصدفة هنا أن تحدث ظاهرة ما بلا علة؛ إذ الطبيعة خالية حتماً من الصدفة الواقعية هذه. بل المراد من الصدفة هنا: الصدفة بشكل نسبيّ: أي أن لا تكون الظاهرة نتيجة طبيعيةً لعمل ما، ومثاله: أن تخرج يوماً من المنزل في ساعة ما فتلتقي بصديق، تلك صدفة كان قد خرج لقضاء بعض أغراضه. وهذه الصدفة لا تخضع لضوابط عامّة ولا لقوانين علميّة.

- النظريّة الثانية:

ترى في المجتمع وجوداً مستقلاً عن وجود الأفراد.

وطبقاً لهذه النظرية فإنّ شخصيّة المجتمع غير شخصية الأفراد، حيث تتكوّن شخصيةٌ واقعيةٌ للمجتمع. وهذه الشخصيّة هي عبارة عن تركيب مكوّن من التفاعل الثقافيّ للأفراد.

ويؤمن أصحاب هذا الاتجاه، ونتيجة لما تقدّم، بأن المجتمعَ جزءٌ من أجزاء الطبيعة يخضع لقوانينها الكلية وقواعدها العامة، كأيّ تركيب آخر من تراكيبها.

وإذا كان للمجتمع قوانين كليّة وضوابط عامة تؤثّر في مسيرته، فإنّه يصلح لأن يكون موضوعاً للفكر وأساساً للدراسة، ويكون جديراً بأن يُستفاد منه ويُعتبر.

- النظرة القرآنية:

عندما يذكر القرآنُ الكريم التاريخَ فإنّه يروي أحداثه كمصدر للتفكّر والاعتبار، وينطلق في قسم من دروسه ـ على الأقل ـ من حياة الأمم و الجماعات:

﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾[1].

فالتاريخ بحسب القرآن مصدرٌ تعليميّ مثمر ومعطاء، وهو يؤكّد على أمرين:

أولاً: يؤكّد على أنّ للتاريخ ضوابط وموازين عامة.

فالقرآن رفض بشدّة النظرة العبثيّة إلى التاريخ، وأشار إلى وجود قواعد كليّة وعامّة:

(١) سورة البقرة، الآيتان/ ١٣٤ و١٤١.

﴿استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلاً ولن تجد لسنت الله تحويلاً﴾[1].

ثانياً: كما يؤكّد على أن لإرادة الإنسان الدور الحاسم في تعيين مسيرة حركة التاريخ.

ويشير القرآن إلى هذه القاعدة التربويّة التي تحكم التاريخ ضمن حقل قوانينه العامة، وذلك حين يؤكّد أنّ البشريّة إنّما ترسم مصيرها بيدها كقوله تعالى:

﴿... إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...﴾[2].

وباجتماع هذين الأمرين، يتّضح أنّ العطاء التعليميّ للتاريخ هو عطاء عمليّ، ولو اقتصرنا على وجود قواعد وموازين عامة دون أن يكون للإنسان دور فيه لكان عطاؤه نظريّاً محضاً.

الهدف من السرد القرآنيّ للأحداث التاريخيّة:

من هذا المنطلق يسرد القرآن الوقائع التاريخيّة، أي يبيّنها للاستفادة والاعتبار منها؛ فإنّه على مسرح التاريخ القرآني عندما يبرز دور للمستكبرين في مقابل دور المستضعفين، وينشب الصراع بين هاتين الفئتين، متخذاً طابعاً إنسانيّاً لا ماديّاً طبقيّاً، فإنّ هذه الأحداث تقع في خانة الصراع الدائم والمستمر بين قوى الحقّ وقوى الباطل...

(١) سورة فاطر، الآية/٤٣.

(٢) سورة الرعد، الآية/١١.

بهذا الشكل يعطي القران العوامل الاخلاقية والاجتماعية دورا رئيسا في مسيرة التاريخ، ويؤكّد في الوقت ذاته أنّ الصراع بين الفريقين ذو هويّة معنويّة إنسانيّة لا ماديّة طبقيّة.

هكذا نفهم الصراع بين النبي إبراهيم عليه السلام والنمرود، وبين النبي موسى عليه السلام وفرعون... فإنّ القرآن يرسم هذه الصراعات بناءً على أنّ لكل عصر نمروداً أو فرعوناً، ولكلّ نمرودٍ وفرعونٍ إبراهيمَ وموسى... وفي هذه الصراعات ينتصر الحقّ حيناً والباطل حيناً آخر. فيدعونا القرآن إلى الاستفادة من عِبر هذه القصص.

ولو كان التاريخ مجرّد مجموعة اتفاقات وصدف لما كان للقصص القرآني التاريخيّ أيّ عطاء تعليميّ. ولتبدّلت أحداثه إلى أساطير لا تصلح إلا للتسلية والسمر.

تكامل المجتمع والتاريخ:

سنستعرض طريقتين مختلفتين في تفسير تكامل التاريخ، وذلك بالقدر الذي يتعلّق بهدفنا من مسألة انتظار الفرج والأمل بالمستقبل.

الاتجاه الديالكتيكيّ أو الآليّ في تفسير تكامل التاريخ:

أولا. تكامل الطبيعة:

يفهم هذا الاتجاه التطوّر في الطبيعة على أنّه نتاج الصراع بين المتناقضات، ويتمّ وفق الخطوات الأربع التالية:

١ ـ إن الطبيعة في حركة مستمرة دؤوبة، فهي لا تعرف السكون مطلقا، ولا تعيش الثبات.

٢ ـ تترابط أجزاء الطبيعة بشكل وثيق، فكلّ جزءٍ منها يتأثّر بالأجزاء الأخرى ويؤثّر فيها، ولذلك عندما تُدرس الطبيعة فلا بدّ أن تُدرس أجزاؤها على أنّها مترابطة غير مفكّكة أو مجزّأة.

٣ ـ تنشأ الحركة في الطبيعة بسبب صراع المتناقضات[1]، ويشكّل هذا الصراع أساس كل تطوّر، ويتمّ على الشكل التالي:

تتجه كلّ ظاهرة طبيعية تلقائياً نحو نقيضها، يأخذ النقيض في النموّ شيئاً فشيئاً بحيث يصبح قادراً على مواجهة تلك الظاهرة. هكذا ينشب الصراع بينه

(١) لا بد أن نشير هنا إلى أنّ مسألة الارتباط والحركة والتناقض في أجزاء الطبيعة لا يختص بها الاتجاه الآنيّ والديالكتيكي. كما يحاول أصحاب هذا الاتجاه الإيحاء به. فإنّ الفلاسفة الإلهيين هم أوّل من نظر إلى أجزاء العالم على أنّها مرتبطة فيما بينها ارتباطاً عضوياً. كما يعتقد بذلك أيضاً أصحاب الاتجاه الميتافيزيقي. فإنّ أرباب الإتجاه الميتافيزيقيّ لا ينظرون إلى الأشياء باعتبارها ثابتة وساكنة. بل يعتبرون سكون الطبيعة أمراً نسبياً. فيما الثبات من خصائص ما وراء الطبيعة. وكذلك يؤمن التفكير الميتافيزيقيّ بالتضاد بين عناصر الطبيعة. بل يعتبره شرطاً لازماً لدوام فيض الباري.

نعم، يتساهل أصحاب الاتجاه الديالكتيكي في عرض فكر غيرهم حيث يرمون أيّ إتجاه غير ديالكتيكيّ بعدم القول بالارتباط والحركة والتناقض. ويعتبرونها مختصة بهم.

وفي الواقع. فإنّ الذي يختصّون به هو:

١ ـ إقتصارهم في فهمهم لتطوّر الطبيعة على أساس الصراع بين الأجزاء. وتفسيرهم للتكامل بالتالي على أساس التناقض وحده. مع اعتبارهم أنّ كل ظاهرة تحمل في أحشائها فناءها. أمّا أصل فكرة التناقض. فليست من مبتكراتهم.

٢ ـ يقولون بديالكتيكيّة الفكر، ويبنون على أنّه جزء من الطبيعة يخضع لقوانينها. وفقاً للارتباط والحركة والتناقض. فهكذا يتطوّر الفكر في نظرهم.

وبالمناسبة لا بأس بالتنبيه على عدم التسرّع في إلحاق الفكر الإسلاميّ بأحد الإتجاهين ـ الديالكتيكي أو الميتافيزيقيّ ـ؛ إذ للإسلام فكر يختصّ به، قد يشترك جزئياً مع كلّ واحد من الإتجاهين ليختلف معه في نواحٍ أخرى.

وبينها: فالظاهرة تريد الحفاظ على نفسها والنقيض يريد ان يبدّلها.

٤ ـ يشتدّ الصراع بين الظاهرة ونقيضها، ويستمرّ إلى أن يبلغ ذروته، ثمّ تحدث ثورة تنتهي لصالح النقيض المتمثّل بالقوى الجديدة على حساب الظاهرة والقوى القديمة. وهكذا تتبدّل الظاهرة بنقيضها الذي كانت تتجه تلقائيّاً نحوه[1].

في المرحلة اللاحقة ينشب صراع جديد بين هذا النقيض ونقيض آخر فيتحوّل إليه، ونفي النفي هذا نوع من التركيب، تتواصل به حركة المجتمع والتاريخ بشكل حتميّ وجبريّ ويحصل التكامل، وهكذا...

والخلاصة أنه وفقاً لهذه النظرية هناك أصل، يمكن أن نسمّيه «الأطروحة»، ينقلب إلى نقيضه «الطباق»، فيما بعد يأتلف النقيضان ليشكّلا تركيباً واحداً «التركيب». ثمّ يصير هذا التركيب أصلاً و«أطروحة» جديدة تطوي المراحل نفسها...

وثلاثيّ «الأطروحة والطباق والتركيب» هو المسمّى بحسب أصحاب هذا الإتجاه بالمثلّث الهيغليّ.

الطبيعة بحسب هذا الاتجاه لا تكون هادفة:

يعتبر هذا التفسير الطبيعة عنصراً غير هادف، فهي لا تنشد كمالها، بل على العكس تتجه بشكل دائم نحو نقيضها، أي نحو الاندثار. وهذا الاندثار بدوره يحمل في طيّاته عوامل فنائه. وبهذا المسير غير الهادف يحصل تكاملها وتطوّرها. فتكاملها لم يكن الهدف المنشود لها بل حصل على أثر تركيب الأضداد.

(١) من هنا يقال: إنّ كلّ ظاهرة تحمل في أحشائها عوامل فنائها.

ثانيا ـ تكامل المجتمع والتاريخ:

يعتبر هذا الاتجاه أنّ العامل الأساس الذي يشيّد المجتمع، والسبب الرئيس الذي يؤدّي إلى الحركة فيه وبالتالي إلى تكامله، هو العمل الإنتاجيّ وتطوّر آلات الإنتاج[1].

فبحسب المنظّرين لهذا الاتجاه إنّ العامل الاقتصادي هو أساس حياة البشريّة. هو الذي يخلق علاقةً بين الأفراد تنبثق عنها مجموعة العلاقات الأخرى، كالعلاقات الإجتماعية والسياسيّة.

ولذا قيل: إنّ الاقتصاد هو الذي يشكّل البناء التحتيّ للمجتمع. الذي يؤدّي تغيّره إلى تغيّر كل الأبنية الفوقيّة.

ويتمّ التطوّر والتكامل في المجتمع والتاريخ وفق الخطوات التالية:

ـ يشكل التاريخ جزءاً من أجزاء الطبيعة، ولذا فإنّه يطوي نفس مراحلها ـ لكن مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ عناصر المسألة التاريخيّة هم أفراد البشر، فهو حركة وصراع دائم بين مجموعات فتية جديدة ومجموعات سابقة.

ـ إنّ كل جيل جديد من أفراد الإنسان يحمل أفكاراً أكثر تطوّراً تؤدي إلى زيادة الإنتاج؛ إذ الإنسان مزوّد بالقدرة على تطوير آلات الإنتاج.

ـ توجِد أفكارُ القوى الفتيّة الحديثة علاقاتٍ اقتصاديّةً جديدة تنبعث منها علاقات اجتماعية.

ـ تنمو هذه القوى وتصبح قادرة على الوقوف بوجه القوى القائمة.

(١) ومن هنا صح أن نطلق عليه اسم: الإتجاه الآلي.

ـ ينشب صراع بين الفريق الرجعي، وقوامه تلك القوى التي ترتبط مصالحها بالوضع الاقتصاديّ القديم والتي ترى ضرورة بقاء الأوضاع على ما هي عليه، وبين الفريق التقدميّ الذي يتشكل من القوى الفتيّة بوسائلها الإنتاجيّة المتطورة، وترتبط مصالحها بنظام إقتصادي جديد.

ـ يشتدّ هذا الصراع ويحتدم ليبلغ ذروته، فتحدث ثورة يتبدّل فيها المجتمع بزوال وفناء النظام القديم وحلول النظام الجديد.

وهكذا يكون هناك تأثير متبادل بين الإنسان والآلة، الإنسان يخلق الآلة، والآلة تخلق الإنسان الجديد.

فيما بعد تطوي هذه المرحلة الجديدة المسيرة نفسها، لتتواصل مراحل التاريخ، وهكذا..

نتائج الاتجاه الآليّ في تفسير تكامل التاريخ:

١. مفهوم القديم والجديد:

بحسب هذا التفسير، لا ينطلق مفهوم القديم والجديد من إطاره الثقافيّ، فإنّ مفهومَ القديم والجديد مفهومٌ اقتصاديّ بحت؛ تتشكّل القوى الرجعيّة من الطبقة المرفهة لأنّها المنتفعة من الأوضاع الاقتصادية الحالية، فتطالب باستمرارها وثباتها، فيما تتشكل القوى التقدمية من الطبقة المسحوقة والتي تتمتع بأفكار إنتاجية متطورة وتطالب بتغيير الأوضاع الحالية.

امّا العلاقات الثقافية والاجتماعية وما شابه، فإنها تنبثق من العلاقات الاقتصادية، فإنّ محتوى التفكير الاجتماعيّ للأفراد يتكوّن من خلال مكانتهم الطبقيّة وظروفهم الاقتصاديّة.

٢. التسلسل المنطقيّ للتاريخ:

تتسلسل المراحل التاريخية بشكل منطقي جبريّ، كأيّ عنصر طبيعيّ آخر، فالتاريخ يَعبُر مراحلَه بالترتيب ولا يمكنه القفز فوق أيّ مرحلة؛ فكما أنّ النطفة لا يمكن أن تصير مضغة دون أن تمرّ بمرحلة تكوّنها علقة،كذلك الرأسمالية ـ مثلاً ـ مرحلة تاريخية تتوسط مرحلة الإقطاع ومرحلة الاشتراكيّة، فمن المستحيل أن ينتقل المجتمع من الإقطاع إلى الاشتراكية دون أن يمرّ بالرأسمالية[1].

٣. وصول كلّ مرحلة إلى ذروتها:

من الضروريّ أن تبلغ كلّ مرحلة من المراحل ذروتها لتنتقل إلى مرحلة جديدة أخرى. فانتظار مرحلة مقبلة دون أن تبلغ المرحلة الراهنة ذروتها يشبه انتظار الولادة قبل أن تطوي النطفة مراحل الجنينية، فهذه في الواقع محاولة إجهاض لا ولادة!

٤. قدسيّة النضال:

يقوم تكامل المجتمع على أساس الصراع بين المتناقضات ـ كما تقدّم ـ، ومن

(١) من هنا فأصحاب هذا المنطق يطلقون اسم «الاشتراكيين المثاليين» أو «الاشتراكية الخيالية» أو «الطوباوية» على الاشتراكيين الذين أرادوا تطبيق الاشتراكية دون أن يراعوا جبر التاريخ والتسلسل المنطقي لمراحله. خلافاً للاشتراكيين الماركسيين الذين يقيمون فكرهم على أساس التسلسل المنطقي لحلقات التاريخ.

هنا يكتسب النضال قدسيته. فإن كلّ صراع بين القديم والجديد يدفع المجتمع إلى التكامل وبالتالي يُعتبر نضالاً مقدّساً كيفما تلوّن، وليست قدسيّة النضال نابعة من كونه دفاعاً عن حقٍّ أو ردّاً لهجوم!

٥ . **إثارة الفوضى:**

بما أنّ تكامل المجتمع هو نتيجة صراع التناقضات. فإنّ كلّ ما من شأنه توسيع الثغرات وتأجيج هذا الصراع، فهو عامل يسرّع في عملية انتقال المجتمع من مرحلة إلى أخرى أسمى وأرقى. ولمّا كانت عمليّة إثارة الفوضى والاضطرابات تنهض بهذا الدور، فهي مشروعة بل مقدّسة وفق هذا المنطق.

٦ . **الاصلاحات:**

تؤدي الإصلاحات الجانبيّة والجزئيّة إلى تضييق الفجوات والثغرات، فهي تخفض من حدّة التناقضات وتؤدّي بالتالي إلى تأخير موعد إنفجار الثورة والإنتقال إلى مرحلة جديدة... فهي إذاً عامل يؤخّر تكامل المجتمع، لذا تُعتبر هذه الإصلاحات خيانة وتخديراً للمجتمع ووقوفاً بوجه تكامله.

خلاصة الدرس

١ ـ هناك رؤيتان ونظريّتان متباينتان في التعامل مع تكوّن المجتمع والتاريخ:

النظرية الأولى: تعتبر أنّ المصادفات والإتفاقات هي التي تؤدّي إلى تكوّن المجتمع والتاريخ، وبناءً على هذه النظرية لايكون التاريخ والمجتمع صالحين للدراسة.

النظرية الثانية: ترى أنّ المجتمع يخضع لقوانين عامّة وقواعد كليّة كأيّ عنصر من عناصر الطبيعة، ولذا يمكننا الاعتبار من سيرة الماضين وحوادث التاريخ.

القرآن الكريم يعتبر التاريخ مصدراً تعليمياً مثمراً ومعطاءً، فيسرد قصصه ليُتفكّر فيها ويُتأمّل ويُستفاد منها.

٢ ـ نشخّص اتجاهين في تفسير وفهم تكامل المجتمع والتاريخ، وتعرّضنا هنا إلى الاتجاه الأول، وهو الاتجاه الديالكتيكيّ أو الآليّ:

ينطلق هذا الاتجاه في تفسيره لتكامل التاريخ على أساس الصراع بين المتناقضات، بعد الإيمان بأنّ أجزاء الطبيعة هي في ترابط وثيق وحركة دائمة.

٣ ـ التكامل في الطبيعة، وفق هذا الاتجاه، يتمّ على الشكل التالي:

تحمل كلّ ظاهرة في أحشائها نقيضها. ينمو النقيض شيئاً فشيئاً وعندما يصبح قادراً على مواجهة الظاهرة ينشب صراع بينهما ينتهي بثورة يقلب النقيض فيها الأوضاع لصالحه حيث يحلّ محلّ تلك الظاهرة.

ثم يقوم هذا النقيض بطيّ المراحل ذاتها، وهكذا...

٤ ـ بناءً عليه فالطبيعة ليست هادفة، إذ ليس منشأ تكاملها سوى الصراع الحتميّ بين المتناقضات.

٥ ـ وأمّا بالنسبة للتاريخ والمجتمع، فإنّ هذا الاتجاه يعتبر أنّ العامل الرئيس الذي يقوم بتشييد المجتمع ويؤثر في حركته وتكامله، هو العامل الاقتصاديّ الإنتاجيّ.

فالعامل الإنتاجيّ يوجِد علاقات اقتصاديّة بين أفراد المجتمع، تنبثق عن هذه العلاقات بقية العلاقات الاجتماعيّة الأخرى وهكذا يتشيّد المجتمع.

أمّا تكامل المجتمع فهو يتمّ وفق صراع المتناقضات وتحت تأثير تطوير العوامل الإنتاجية والآليّة، ووفق مراحل الطبيعة نفسها ـ بما أنّه جزء من أجزاء الطبيعة ـ.

٦ ـ من نتائج هذا الاتجاه:

ـ أنّ أساس التكامل والتطوّر في المجتمع هو العامل الاقتصاديّ.

ـ يتمّ التطوّر ببلوغ كلّ مرحلة ذروتها وبعد حدوث ثورة وانقلاب.

ـ يطوي التاريخ مراحله في سيره التكامليّ بشكل جبريّ إلزاميّ لا تلعب فيه إرادة الإنسان ولا اختياره أيّ دور.

ـ وبحسب هذا الاتجاه يكون كلّ نضال يساهم في تكامل المجتمع مقدّساً بغضّ النظر عن أهدافه، وكذلك فإنّ إثارة الفوضى يعتبر أمراً مشروعاً لأنه عامل يساهم في توسيع الثغرات وتأجيج صراع المتناقضات، وهي الأسس التي يتكامل المجتمع على هَديِها، وهذا على عكس الإصلاحات تماماً.

الفصل الثاني: الاتجاه الإنساني

١ ـ على أيّ أساس يقوم الاتجاه الإنساني في تفسيره لتكامل التاريخ؟

٢ ـ ما هو دور الغرائز والعوامل الماديّة في الصراعات التاريخيّة؟

٣ ـ كيف يردّ الاتجاه الإنسانيّ مزاعمَ الاتجاه الديالكتيكيّ؟

٤ ـ كيف يكسب النضال مشروعيّته وقدسيّته؟

٥ ـ هل للإصلاحات دور في تكامل المجتمع؟

الاتجاه الإنساني أو الفطريّ في تفسير تكامل التاريخ:

يقع هذا الاتجاه في الطرف المقابل تماماً للاتجاه الديالكتيكيّ الآلي، ويعطي فهماً جديداً وتفسيراً آخر لعملية بناء المجتمع وتكامل التاريخ.

يمنح هذا الاتجاه الأصالة للإنسان وقيَمه، سواء على مستوى الفرد أم على مستوى المجتمع، في مقابل أن تكون الأصالة للعامل الاقتصاديّ كما كان قد تبنّى الاتجاه الديالكتيكيّ.

يقوم أصحاب هذا الاتجاه أولاً بمحاولة فهم الإنسان بشكل عميق، فهذا الإنسان تكمن فيه مجموعتان من الغرائز:

١ ـ مجموعة غرائز ماديّة، وهي الغرائز التي يشترك فيها مع الحيوان.

٢ ـ ومجموعة غرائز سامية، كغريزة الدين والأخلاق وحبّ الاستطلاع، وهي التي تميّزه عن الحيوان.

تكامل الإنسان:

يدور الصراع داخل كلّ فرد بين غرائزه الماديّة ذات الهدف الفرديّ المحدود، وبين غرائزه السامية السماوية، التي تتجاوز المصالح الشخصيّة وتهدف إلى

(١) وهذا الصراع أطلق عليه القدماء اسم النزاع بين العقل والنفس.

تحقيق القيم الاخلاقية والعلمية والعقلية. وهذا هو التكامل الذي يندفع إليه الإنسان فطرياً؛ فهو سعي إلى التحرّر من أَسْر قوى الطبيعة والاتجاه إلى السيطرة عليها، ليزداد استثماره للطبيعة من جهة. وليوثّق ارتباطه بالعقيدة والإيمان من جهة أخرى.

ويبلغ الإنسان ذروة الكمال عندما يصل إلى الحريّة المعنويّة التامّة، المتمثّلة بالارتباط التام بالعقيدة والإيمان، بعد السيطرة على العوامل البيئية الطبيعية والتحرّر من الأغلال الحيوانيّة.

وبالنتيجة فإنّ الإنسان يمتلك قدرة التحكّم بنفسه، وليس الإنسان مجرّد كائن مدفوع بغرائزه الماديّة وفرد غارق في مصالحه الذاتية والآنيّة.

إذاً، ليس تطور آلات الانتاج هو السبب الحقيقيّ والعلة للتكامل، بل هو بدوره ناتج ومعلول لاندفاع الإنسان الفطريّ نحو الكمال، فلا ينبغي اتخاذ المعلول مكان العلّة.

تكوّن المجتمع:

أمّا المجتمع فإنّه يتكوّن من أجزاء ترتبط في تركيب حقيقيّ، ويتألّف هذا التركيب من:

خصال الأفراد، الدانية منها والسامية، من جهة، بالإضافة إلى خصال للمجتمع نفسه، تشكّل امتداداً لخصال كانت موجودة سابقاً، من جهة أخرى. لا تتأثر خصال المجتمع بفناء الأفراد، نعم يمنحها تكامل الإنسان نظاماً أفضل.

تكامل المجتمع بحسب التفسير الإنسانيّ:

تُعدُّ مسيرة التاريخ ـ انطلاقاً من هذه النظرة ـ متحوّلة متكاملة كالطبيعة ذاتها، والحركة باتجاه الكمال ضرورة لا تنفصل عن ذات أجزاء الطبيعة بما فيها التاريخ؛ حيث ينسحب الصراع الذي يقوم داخل كل فرد من الإنسان إلى صراع بين المجموعات البشريّة، فينشب صراع بين الإنسان المتكامل المتحرّر روحيّاً، أي الأفراد الملتزمين الذين تخلّصوا من قيود الطبيعة، وبين الإنسان المنحط الغارق في الأغلال الشهوانية الحيوانية . وهذا الصراع الاجتماعيّ هو الذي يؤثّر في تكامل المجتمع والتاريخ وتطوّره، ويتّجه نحو تحرير الإنسان من القيود البيئية والاجتماعية.

بين الاتجاه الإنساني والاتجاه الديالكتيكيّ:

وبناءً عليه فإنّ تكامل التاريخ يعمّ جميع الشؤون المعنويّة والثقافيّة للإنسان، ولا يقتصر على الجانب الآليّ الإنتاجيّ. فليس الصراع الاجتماعيّ مجرّد صراع طبقيّ بين الفئة المرتبطة بوسائل الإنتاج والنظم الاقتصادية القديمة، والتي تسعى إلى حفظ النظام القائم الذي تستفيد منه، وبين الفئة المحرومة التي ترتبط بوسائل إنتاج أكثر تطوّرا، بحيث تنهض بالثورات من أجل تأمين احتياجاتها الماديّة، وتعمد إلى سنّ أنظمة وقوانين جديدة!

ويقدّم الاتجاه الإنساني أمثلة وأدلّة من تاريخ الثورات تؤكّد صحة نظريته، في مقابل ما ذهب إليه الاتجاه الديالكتيكي الآلي:

ـ فالثورات، لو راجعنا التاريخ، لم تقتصر على الطبقات المحرومة بل نهض

بها رجال نشأوا في طبقات مرفهة وذات شأن. كنهضات إبراهيم وموسى ومحمّد والحسين ﷺ.

- وكذلك لم تكن أهداف الثورات ماديّة دائماً. بل نهض رجال في سبيل الله لا يريدون جزاء ولا شكورا، وخاصّة في صدر الإسلام.

- لم تترافق الثورات دائماً مع تطوّر وسائل الإنتاج، كما في النهضة الدستوريّة في إيران وفي نهضات الشرق والغرب التي قامت مقارعةً للاستبداد والطغيان خلال القرون الأخيرة.

- والحركات الاجتماعية كما كانت وليدة نقص القوانين الموجودة أحياناً، فقد ولدتها عدم تنفيذ القوانين النظرية أحياناً أخرى، كحركات الشعوبيّة وثورات العلويّين.

نتائج الاتجاه الإنسانيّ الفطريّ في تفسير التاريخ:

١. حقيقة الحروب:

انطلقت الحروب في التاريخ من أسباب متباينة واتخذت أشكالاً مختلفة، إلا أنّ الحروب التي أخذت بيد المجتمع والإنسانية في سلّم الترقّي هي تلك التي دارت رحاها بين الإنسان الملتزم عقائديّاً المتسامي روحيّاً، وبين العابث المنحطّ المقيّد بالشهوات، فسارت هذه الحروب بالإنسان والمجتمع تدريجيّاً، وبعد اتخاذها صفة إيديولوجية لا طبقيّة آليّة، نحو التكامل.

فالحروب التكاملية ليست بذات صفة طبقية بل تتخذ صفة إيديولوجيّة تسير بالإنسان والمجتمع في سبيل الرقيّ والتكامل في جميع جوانبه، وستكون

نهايتها إقامة حكومة العدل وحكومة سيادة القيم الإنسانية، او «حكومة المهديّ» بالتعبير الإسلاميّ.

٢. حلقات التاريخ:

ليس لوقائع التاريخ تسلسل منطقي مُلزِم وحلقات مفروضة جبريّة. بل هي وقائع عامّة.

ويشهد لذلك ما حدث في القرن الماضي، حيث اتّجهت بلدان إلى الاشتراكيّة دون أن تطوي مرحلة الرأسماليّة، كما حدث في الاتحاد السوفياتي السابق، والصين، ودول أوروبا الشرقيّة.

ولذلك ليس الوصول إلى الذروة يؤدي تلقائيّاً للانتقال إلى مرحلة لاحقة.

فقد حدث أن وصلت مرحلةٌ إلى ذورتها دون أن يؤدّي ذلك إلى حدوث تغيير وانتقال إلى مرحلة جديدة، كالرأسماليّة في الولايات المتّحدة وبريطانيا.

كما أنّ الثورة ليست شرطاً ليحصل الانتقال إلى المراحل اللاحقة، بل يمكن الانتقال من مرحلة إلى أخرى من غير ثورة، كأن ينتقل مجتمع ما من البداوة إلى أسمى مراحل الحضارة، بسبب انبثاق إيديولوجيّة معيّنة فيه وانتشار إيمان دينيّ، كما حدث بظهور الإسلام في الجزيرة العربيّة.

٣. قدسيّة النضال:

يكتسب النضال قدسيّته ومشروعيّته فيما إذا استهدف الدفاع عن مقدّسات إنسانيّة. وهو يتّسع ليشمل كلّ نضال يتعلّق بحقوق الفرد أو المجتمع، كالدفاع عن التوحيد الذي يُعتبر من أهمّ مقوّمات سعادة البشريّة، وكالنضال للوقوف بوجه

الاعتداء على الحقوق الفرديّة والوطنيّة.

وبالنتيجة فإنّ للجهاد ماهية إنسانية لا طبقيّة.

٤. الإصلاحات:

تساهم الإصلاحات، حتى لو كانت تدريجيّة أو جانبيّة، في دعم الحقّ في صراعه مع الباطل: إذ تكون عاملاً مؤثّراً في ترقّي مسيرة التاريخ لصالح دعاة الحق، فهي تساعد في تكامل المجتمع والتاريخ ولا تقف عائقاً في مسيرته التكاملية.

فالتاريخ لا يطوي مسيرته عبر صراع التناقضات حتى ندين هذه الإصلاحات، ولذا فإنّ هذه الإصلاحات مشروعة بل مطلوبة.

٥. إثارة الفوضى:

يثبت بما تقدّم ـ من شرعية الإصلاحات الجزئيّة وكونها عاملاً يؤثّر في ترقّي المجتمع لصالح دعاة الحق ـ عدم شرعيّة إثارة الفوضى والاضطرابات، بخلاف الاتّجاه الآليّ الذي يضفي المشروعيّة على مثل هذه الأعمال لأجل خلق الأزمات.

٦. تأرجح منحنى التاريخ:

إنّ الإنسان هو الذي يؤثّر في حركة التاريخ، والإنسان موجود مختار ذو إرادة، لذا يتأرجح منحنى تكامل المسيرة البشريّة بين الهبوط والارتفاع، ويتراوح بين السرعة والبطء بل قد يخيّم عليه السكون أحياناً.

ومن ناحية أخرى فإنّ التاريخ، وللسبب عينه ـ أي تأثير الإنسان المختار فيه ـ لا يسير سيراً تكامليّاً جبريّاً، ولذلك قد لا تكون المرحلة اللاحقة أكثر تكاملاً من

سابقتها، وكما يقول (تويمبي): «انحطاط الحضارات امر لا يمكن رفضه. لكن تاريخ البشرية يطوي بمجموعه مسيرة تكاملية».

٧. التحرّر من أغلال الطبيعة:

تتّجه المسيرة التكامليّة للإنسان نحو التحرّر من أغلال الطبيعة الماديّة والمصالح الفردية والجماعية لتتخذ طابع الالتزام الفكري، وذلك بالسيطرة على عوامل البيئة والظروف الاقتصاديّة. وبالتحكّم بالغرائز الحيوانيّة، كلّ ذلك نتيجة تكامل ثقافة الإنسان واتّساع آفاقه وازدياد التزامه بالإيديولوجيّات التقدّميّة.

٨. أصالة القوى الفكريّة والأخلاقيّة:

يتحكّم بالوجود الإنسانيّ الضميرُ البشريُّ بقوّتيه: الفكريّة ـ أي قوّة الاستدلال والبرهان ـ، والأخلاقيّة ـ أي قوة النزوع نحو السموّ ـ.

فهاتان القوّتان أصيلتان في وجود الإنسان وتمكّنانه من التحكّم بمتطلباته الماديّة.

٩. عدم انطباق المثلّث الهيغليّ:

لا ينطبق مثلّث الديالكتيك، «الأطروحة والطباق والتركيب» على الطبيعة فضلاً عن التاريخ، فليس كلّ ما يحدث في الطبيعة هو من تبدّل الشيء إلى ضدّه، ثم هذا الضدّ إلى ضدّه ليحدث التركيب في مرحلة ثالثة، بل ما يحدث في الطبيعة عدّه احتمالات:

أ ـ أن يحدث تركيب بين الأضداد بلا تبدّل.

ب ـ ان يحدث تبدّل للاضداد من دون تركيب.

ج ـ أن يحصل تكامل خالٍ من تركيب الأضداد ومن تبدّلها، كتركيب الماء من عنصري الأوكسجين والهيدروجين.

نعم! يمكننا أن نطلق مصطلحات المثلث الهيغليّ على عمليّات التغير هذه كلّها، لكنّها تكون في واقعها مفتقدة للعنصر الأساسي الذي تمتاز به الماركسيّة (الصراع بين المتناقضات).

موقع القيم الإنسانيّة في الاتجاه الإنسانيّ الفطريّ:

إنّ من أهمّ ما يتميّز به الاتجاه الفطريّ هو أنّه يعطي للقيم الأصالة في وجود الإنسان، فهو ينشد هذه القيم، ينشد الحقّ والعدالة ويقوم بالتخطيط لبناء مجتمع سامٍ.

وهذا الاتجاه لا ينفي تأثّر الإنسان بالبيئة، إلا أنّه يؤمن أيضاً بأنّ الطبيعة لا تقوى على أن تسيّره مجبراً، بل له القدرة هو الآخر على التأثير فيها.

يتميّز الإنسان إذاً عن سائر الموجودات بوعيه الذي يقدر بواسطته أن يسيطر على نفسه مقابل ظروف البيئة والطبيعة، فيقوّم انحرافاته وينطلق في صنع نقاطٍ مضيئة في تاريخ البشريّة.

جوهر الاختلاف بين الاتجاه الدياليكتيكيّ والاتجاه الإنسانيّ:

في الحقيقة يعود جوهر الاختلاف بين الاتجاهين، الآلي والإنساني، إلى

الخلاف في فهم وتفسير الإنسان.

فالاتجاه الديالكتيكيّ الآليّ يعتبر الإنسان مجرّد معلول لمصالحه الماديّة والاقتصادية، فهذه المصالح هي التي تفرض عليه تطوير وسائل الانتاج.

وعليه فإنّ كلّ ما ينطوي عليه الإنسان، من مشاعر ورغبات وأحكام وقدرات، ليس سوى انعكاس لظروف بيئته الطبيعية والاجتماعيّة، فالإنسان مجرّد مرآة تعكس ما يحيط به، وهو في واقعه لا يقدر على أيّ حركةٍ مخالفةٍ للظروف المحيطة.

أمّا الاتجاه الفطريّ فيرى أنّ الإنسان يتمتّع بخصال تدفعه إلى طلب الحق، وهو قادر على التحكّم بنفسه، ويستطيع التحرّر من جبر الطبيعة والظروف المحيطة.

وأما التفسير القرآنيّ للتاريخ، والذي تقدّم ذكره، ينطلق دون شكّ من النظرة الثانية. فقد بيّنّا أنّ القرآن يؤكّد على تأثير العوامل الأخلاقيّة في مسيرة التاريخ، ويركّز على دور إرادة الإنسان في تعيين مسير حركته، في مقابل أن يكون التكامل قائماً على أساس ماديّ طبقيّ، ويسير بشكل جبريّ لا يتحكّم الانسان به..

خلاصة الدرس

١ ـ الاتجاه الإنساني او الفطريّ هو الاتجاه المقابل للاتجاه الديالكتيكيّ.

٢ ـ يمنح هذا الاتجاه الأصالة في المجتمع للقيم الإنسانية، وليس للعامل الاقتصاديّ والإنتاجيّ.

٣ ـ يؤمن أصحاب هذا الاتجاه بأنّ الإنسان قادر على التحكّم بغرائزه الماديّة ومصالحه الذاتيّة.

٤ ـ يلعب الإنسان دوراً محورياً في عمليّة تكامل المجتمع، فالتاريخ لا يطوي مسيرة جبريّة مفروضة، إذ الصراع في المجتمع، وعلى مرّ التاريخ، هو صراع بين غرائز الإنسان الماديّة الحيوانيّة وبين غرائزه السامية السماويّة، والهدف من هذا الصراع تحقيق القيم، حيث يسعى الإنسان إلى التحرّر من أسر المادة وقوى الطبيعة بالسيطرة عليها، ويتوجّه نحو توثيق ارتباطه بالعقيدة والإيمان، وهذا هو التكامل الذي يندفع إليه الإنسان فطريّاً.

٥ ـ تكامل المجتمع والتاريخ وفق هذا الاتجاه يعمّ جميع الشؤون المعنويّة والثقافيّة للإنسان، ولا يقتصر على الشأن الاقتصاديّ كالاتجاه السابق!

٦ ـ من أهمّ نتائج هذا الاتجاه:

ـ منح الأصالة لإرادة الإنسان القادر على السيطرة والتحكّم بمتطلباته الماديّة، حيث يسعى في سيره التكامليّ إلى التخلّص من أغلال الطبيعة والاتجاه نحو السيطرة عليها، ليزداد التزاماً عقائديّاً وروحيّاً وخلقيّاً.

ـ الصراعات والحروب التي تؤدي إلى تكامل المجتمع هي تلك التي نشبت بين الملتزمين المتحررين روحيّاً، وبين الغارقين في شهوات الغرائز الماديّة.

ـ ليست مسيرة التكامل مسيرة مفروضة وحتميّة بل تلعب إرادة الإنسان فيها دوراً أساسيّاً.

ـ يكسب النضال قدسيّته ومشروعيّته إذا استهدف الدفاع عن مقدّسات إنسانيّة، كالإصلاحات التي تساهم في دعم الحقّ بوجه الباطل. أمّا إثارة الفوضى والاضطرابات فلا مشروعيّة لها بنفسها.

٧ ـ القرآن يؤيّد هذا التفسير لتكامل المجتمع، حيث يؤكّد على دور إرادة الإنسان وعدم جبريّة مسيرة التاريخ التكامليّة.

الفصل الثالث: انتظار المهدي ﷺ

١ ـ كيف ينظر الإسلام إلى مستقبل البشريّة؟

٢ ـ هل إنتظار الفرج وانتظار المهديّ ﷺ هو من مختصات المذهب الشيعيّ؟

٣ ـ ما هي أهمّ خصائص نهضة المهديّ ﷺ؟

٤ ـ كيف ننتظر الفرج؟

٥ ـ هل نشر الفساد من العوامل المساهِمة في تعجيل الفرج؟

* * * *

الإسلام يبعث الأمل في المستقبل:

تُجمع الفرق الإسلاميّة، مع اختلاف طفيف، على حتميّة انتصار قوى الحقّ في صراعها مع قوى الباطل، ويُجمع المسلمون على أنّ هذا الانتصار يتمّ على يد شخصيّة مقدّسة أطلقت عليها الروايات اسم «المهدي».

وتنطلق هذه الفكرة بالأساس من مفاهيم القرآن الكريم الذي يؤكّد على حتميّة إنتصار رسالة السماء[1]، وعلى حتميّة انتصار المتقين والصالحين[2]، وانهزام قوى الظلم والطغيان[3]، ثمّ بزوغ فجرٍ مشرقٍ سعيدٍ على البشريّة[4].

كما يمكن استفادة ذلك من مفهوم آخر يطرحه القرآن وهو «حرمة اليأس من رَوْح الله»[5].

وهذا الأمل مذكورٌ أيضاً في الروايات الإسلاميّة بعبارة «انتظار الفرج»، وقد

(١) ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ سورة التوبة، الآية: ٣٣، سورة الصف، الآية: ٩.

(٢) ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

(٣) ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ❖ ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ سورة القصص، الآيتان: ٥، ٦.

(٤) ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.

(٥) كما في الآية الشريفة: ﴿... ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ سورة يوسف، الآية: ٨٧.

عَدّ فيها من افضل العبادات[1].

وحصيلة هذه الفكرة هي نظرة تفاؤليّة تجاه مسيرة التاريخ، نظرةٌ تبعث الأمل في المستقبل. ومؤداها أنّه مهما قست الظروف فإنّ المؤمن لا يستسلم لليأس ولا يفقد الأمل بالنصر الإلهيّ الموعود، إذ هو على موعد مع فرجٍ متوقع في نهاية المطاف.

البشرى للعالم أجمع:

يحمل مفهوم «انتظار الفرج» البشرى للبشريّة جمعاء، فلا يختصّ بفرد معيّن أو جماعة محدّدة؛ إذ تمثّل مسألة نهضة المهدي قضيّة اجتماعيّة وفلسفيّة كبرى لها خصائص وعناصر ذات أبعاد عالميّة، خصائص ثقافيّة تربويّة كما هي سياسيّة اقتصاديّة واجتماعيّة...

نشير إلى بعض هذه الخصائص باختصار:

أ ـ تتجه البشريّة نحو مستقبل مشرق تنقلع فيه جذور الظلم والفساد من منابتها. وهذا مما يبعث على التفاؤل في مستقبل البشريّة، ويقع ذلك في مقابل نظريّتين:

تعتقد الأولى أنّ الشرّ والفساد والتعاسة صفات ملازمة للحياة الإنسانيّة، وعليه فإنّ أفضل ما يمكن أن يقوم به الإنسان هو وضع حدّ لهذه الحياة.

وتؤمن الثانية بأنّ البشريّة، وبفعل تطوّرها وتقدّمها في صنع وسائل

(١) عن رسول الله ﷺ: «أفضل أعمال أمّتي انتظار الفرج...» كمال الدين، الصدوق، ج٢.

الدمار والخراب. تحفر قبرها بيدها، وبذلك فهي تسير نحو الانهيار والسقوط.

ب ـ ستنتصر قوى الحقّ والتقوى والسلام والعدل والحريّة على قوى الظلم والاستكبار والاستعباد، وستُقتلع جذور الفساد.

ج ـ ستقوم حكومة عالمية واحدة. تجمع تحت عباءتها جميع الفئات والمجموعات البشريّة.

د ـ ستعمر الأرض وتُستغلّ ثرواتها، وتستثمر ذخائرها إلى أقصى حدّ ممكن. وبالإضافة إلى ذلك ستحلّ المساواة بين البشر في مجال توزيع هذه الثروات.

هـ ـ ستبلغ البشريّة حدّ التكامل والنضج؛ حيث يتّخذ الإنسان سبيل العقل متحرّراً من أغلال الشهوات والظروف الطبيعية والاجتماعيّة، وتحصل المواءمة بين الإنسان والطبيعة، وتخلو النفوس من العقد والأحقاد.

وتحتاج هذه النقاط إلى تحليل ودراسة أكثر تفصيلاً لا يتسع لها بحثنا هذا.

كيفية انتظار الفرج (الانتظار الكبير):

هناك نوعان من انتظار الفرج:

<u>الأوّل. الانتظار الهدّام:</u>

وهو الانتظار الذي يبعث على الخمول والكسل ويؤدّي إلى شلّ حركة الإنسان ويقيّد طاقاته.

يبني هذا الانتظار تصوّره لنهضة المهدي ﷺ على اساس انها مجرّد انفجار ينجم عن انتشار الظلم والفساد وشيوعهما في البلاد.

فبحسب هذه النظرة إنّ مسيرة البشريّة تحثّ خطاها نحو انعدام العدل واستفحال الباطل، وهي متى تصل في انحدارها إلى نقطة الصفر فستمتدّ يد الغيب لقلب الطاولة على عقبها وإنقاذ الحقّ.

ولذلك لا يرى أصحاب هذه النظرة لأنصار الحقيقة أيّ دور في عملية نهضة المهدي ﷺ، بل على العكس لكي يظهر المهدي فلا بدّ من أن يزول أنصار الحقّ نهائيّاً.

من هنا يدين هؤلاء كلّ إصلاح في المجتمع، على اعتبار أنّه يؤخّر الإمداد الغيبي الموعود، فيما يعتبرون أنّ من الأمور التي تساهم في تسريع ظهور المهديّ مسألةَ إشاعة الفساد، وعلى هذا فإشاعة الفساد أمر مطلوب بل من أفضل أنواع انتظار الفرج ولو من باب «الغاية تبرّر الوسيلة».

لذلك نجد أنّ أصحاب هذا التصوّر ينظرون إلى المصلحين والمجاهدين بعين الحقد والعداء، فإنّ هؤلاء المجاهدين ـ طبقاً لهذه النظرة ـ عامل سلبيّ يساهم في تأخير الظهور.

والذين يتبنّون هكذا نوع من الانتظار، إن لم ينضمّوا إلى زمرة العاصين عملاً فإنّهم يتطلّعون إلى أصحاب المعاصي بعين الارتياح والرضا باعتبار أنّهم الممهّدون لظهور القائم المنتظر ﷺ.

الانتظار الهدّام والاتجاه الديالكتيكيّ:

ولذا فقد يتوافق هذا النوع من الانتظار والاتجاه الديالكتيكيّ في بعض النتائج، فهو يشاركه في معارضة الإصلاحات: بناءً على أنّها تؤخّر في عمليّة الوصول إلى المرحلة الأسمى، وفي التأكيد على ضرورة تشديد الفوضى وإشاعة الفساد، فيرتئي ـ كالاتجاه الديالكتيكيّ ـ زيادة الظلم والفساد للوصول إلى النتيجة المطلوبة، وهي الوصول إلى الانفجار المقدّس[1].

وعلى قاعدة «الغاية تبرّر الوسيلة»، تستحقّ هذه الحركات ـ معارضة الإصلاح، وإشاعة الفساد ـ، وفق هذا التصوّر، عنوان النضال المقدّس.

نعم، هناك فارق بينهما، فإنّ هدف الاتجاه الديالكتيكي من تعميق الفجوات والتناقضات هو تصعيد النضال والجهاد، فيما يفتقد هذا التفكير المبتذل في مسألة إنتظار المهدي﴿عج﴾ لحركة الجهاد والعمل، وينتظر بعد نشر الفساد الوصول إلى النتيجة المطلوبة تلقائياً، بلا أيّ جهد يُبذل[2].

تقييم هذا الانتظار:

وعلى كلّ حال، وبغضّ النظر عن عدم صوابيّة هكذا نظرة إلى تكامل التاريخ، فإنّ هذا الانتظار الهدّام وهذا التصوّر يتخطّى مجموعة من الحدود والأحكام

(١) وذلك عندما تبنّى أصحاب هذا التصوّر أنّ المهديّ﴿عج﴾ إنما يظهر عندما يصل الانحدار إلى نقطة الصفر، فحينها تنقلب ظاهرة الفساد وبفصل يد العون الإلهيّة الغيبيّة، ويحلّ محلّها الحق والعدل والسلام...

(٢) راجع الهامش السابق.

والمفاهيم الإسلاميّة ويؤدّي إلى تعطيلها، فلا يتلاءم مع النظرة القرانيّة ولا مع الموازين الإسلاميّة، ولذا لا يمكن تبنّيه بأيّ شكل من الأشكال، بل هكذا انتظار يمكن اعتباره انتظاراً محرّماً.

الثاني. الانتظار المثمر البنّاء:

يأخذ هذا الانتظار منحىً معاكساً للانتظار الهدّام. فهو يبثّ في كيان المنتظِر قوّة تدفعه نحو التحرّك والعمل والجهاد، وهو يعتقد بأنّ لإرادة المنتظِر دوراً أساسيّاً في حصول الفرج ووصول تكامل التاريخ إلى أسمى نقاطه، وبالتالي فهو يؤمن بالإنسان وقدراته.

ويعتمد هذا التفكير في فهمه لزمان وحقيقة الظهور على: أنّ ظهور المهدي ﷺ يمثّل آخر حلقة من حلقات الصراع الدائم بين أهل الحقّ وأهل الباطل، وعليه فلا بدّ من استمرار مقارعة قوى العدل والخير لقوى الظلم والشرّ، ومن دوام الصراع بين الحق والباطل.

ويلعب النشاط الإنساني دوراً أساسيّاً في تحقّق الظهور، حيث يساهم أهل الحقّ في تحقيق الانتصار، ولهم دور أساس في عمليّة ما بعد الظهور، فليست مسألة الظهور مجرّد امتداد لليد الغيبيّة عند وصول انحدار البشريّة إلى نقطة الصفر، حتى ينتفي أيّ دور لمثل هؤلاء الصالحين.

وبناءً عليه فالفرد الذي يهمّه المشاركة والتمهيد للظهور فلا بدّ أن يكون منتمياً إلى أهل الحقّ الممهدين الواقعيين للمهدي ﷺ، وليس أهل المعاصي والفساد!

أدلة هذا النوع من الانتظار:

يستند هذا الفهم لكيفية الانتظار إلى الآيات القرآنيّة والروايات التي تشير إلى أنّ المهديّ ﷺ هو مَظهرٌ لحتميّة انتصار قوى الحقّ في صراعها مع الباطل، وتجسيدٌ لآمال المؤمنين العاملين، فتشكل هذه الآيات والروايات أرضيّة هذا التفكير، فكيف ذلك؟

- إن الروايات والآيات قد ركّزت على وجود فئة أهل الحق في عصر الظهور... بل إنّ الموعودين بالاستخلاف في الأرض والمنتصرين في حركة المهديّ ﷺ، هم خصوص المؤمنين العاملين بالصالحات، كما في الآية الشريفة:

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾[1].

وهذا الوعد للعاملين الصالحين جارٍ في جميع الكتب السماويّة:

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[2].

فظهور المهديّ ﷺ لا يستهدف ملء الأرض إيماناً وتوحيداً وصلاحاً فحسب، بل يستهدف نصرة أهل الحقّ والفئة المظلومة وإنقاذهم. وعليه فلا بدّ أن يستمرّ

(١) سورة النور، الآية/ ٥٥.

(٢) سورة الأنبياء، الآية/ ١٠٥.

الصراع فتكون هناك فئة يستضعفها اهل الظلم والتجبّر، فيمنّ الله عليها بظهور المهديّ:

﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ [1].

ـ وتحدّثت الروايات عن أنّ نخبة من المؤمنين ستلتحق بالمهدي ﷺ فيكونون من أنصاره. وإذا كان لا بدّ من نخبة في ذلك الزمان فلا نشكّ بضرورة وجود أرضيّة صالحة تستمرّ على مرّ الأيّام تؤمّن هذه النخبة وتربّيها. وهذا لا يتمّ بنشر الفساد والحقد على المصلحين والعاملين!

ـ بل تشير الروايات إلى سلسلة نهضات تسبق ظهوره، كنهضة اليمانيّ. وهذه النهضات لا يمكن أن تنطلق من ساكن ومن العدم، بل لا بدّ أنّها تندرج في سلسلة الصراع بين أهل الحقّ وأهل الباطل.

ـ وأكثر من ذلك، ليست نهضة المهديّ متوقّفة على وجود فئة ونخبة من أهل الحقّ ونهضاتهم فحسب، بل لا بدّ من أن يشيّدوا دولة لهم تسبق ظهوره.

فقد أشارت بعض روايات عصر الظهور إلى أنّه في ذلك العصر تقوم دولة للحقّ تستمرّ حتى ظهوره[2].

وهذا أيضاً من الدلائل على أنّ الظهور لا يقترن بفناء الجناح المناصر للحقّ، بل بانتصارٍ أوليّ لجناح العدل والتقوى على جناح الظلم والفساد.

كل هذا يؤكّد على ضرورة استمرار صراع الحقّ وأنصاره مع الباطل

(١) سورة القصص، الآية/ ٥.

(٢) وهذا الأمر هو الذي جعل بعض العلماء يحسنون الظنّ بدول بعض السلالات الحاكمة. حيث ظنّوها بأنّها هي الدولة التي ستحكم حتى ظهور المهديّ ﷺ.

واهله، ليختتم ذلك بظهور المهديّ ﷺ منقذا لانصار الحقّ وناصرا لهم.

والانتظار المثمر البنّاء الذي يبني تصوّره على هذا الأساس، والذي يدعو إلى العمل والجهاد والدفاع عن الحقّ هو الانتظار الذي يستحقّ أن يكون أفضل عبادة أمّة رسول الله ﷺ[1].

إشكال البعض بالحديث المعروف عن الانتظار:

يشتبه البعض في فهم الحديث المعروف، والذي يتحدّث عن عصر الظهور، حيث رُوي عن رسول الله ﷺ:

«لو لم يبقَ من الدنيا إلا ساعة واحدة لطوّل الله تلك الساعة حتى يخرج رجل من ذريّتي، اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»[2].

فيفهم منه بأنْ لا وجود لأنصار الحقّ في زمن الظهور، بل ذلك الزمان هو زمان خلت الأرض فيه من أنصار الحقّ، وامتلأت بأنصار الظلم والفساد[3].

ثم يرتّب على ذلك آثاره، من ضرورة إشاعة الفساد والنظر بحقد إلى المصلحين والمجاهدين باعتبارهم عاملاً يؤخّر عملية الظهور وفقاً لهذا

(١) وهو الحديث الذي أشرنا إليه سابقاً. عن رسول الله ﷺ: «أفضل أعمال أمّتي إنتظار الفرج...».

(٢) النكت الاعتقادية. الشيخ المفيد، ص٤٤. دار المفيد. ط٢.

(٣) ولعلّ منشأ الخطأ في فهم هذا الحديث هو عدم الالتفات إلى أنّ الحديث إنّما يقول: «ملئت ظلماً» ولا يقول «ملئت ظالمين». وبالالتفات إلى هذا الأمر نجد أنّه لا يمكن استفادة «عدم وجود أنصار الحقّ» في زمن الظهور منه بأيّ شكل من الأشكال!

الحديث، كما مرّ في الانتظار الهدّام.

لكن وبالتأمّل في هذا الحديث، نجده يجعل محورَ حصول الظهور مسألةَ الظلم والجور. ووجود الظلم والجور يستدعي وجود فئة مظلومة تناصر الحق، وبذلك تستحقّ النصرة الإلهيّة بظهور المهديّ ﷺ.

نعم، لو لم يركّز هذا الحديث على مفهوم الظلم بأن أشار إلى مفاهيم من قبيل الفساد والكفر والشرك لكان من الممكن استفادة أن نهضة المهديّ ﷺ تقترن بفناء الجناح المناصر للحقّ والعدل والإيمان...

أما وأنّه قد أشار إلى مسألة الظلم والجور، فهذا يعني أنّ نهضة المهدي ﷺ الموعود تستهدف إنقاذ أنصار الحقّ المظلومين ولو كانوا قلّة، لا إنقاذ الحق المسحوق فقط.

ولذلك نجد أنّ بعض أحاديث الظهور يدور حول حقيقة بلوغ كلّ شقيّ وكل سعيد مداه في العمل، ولا يدور حول بلوغ الأشقياء فقط منتهى درجتهم في الشقاوة، كما في الحديث المرويّ في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام:

«يا منصور، إنّ هذا الأمر لا يأتيكم إلا بعد إياس ولا والله حتّى تُميّزوا، ولا والله حتى تُمحّصوا، ولا والله حتى يَشقى من يشقى ويسعد من يسعد»[1].

فهذا الحديث هو خير شاهد على ضرورة وجود أنصار للحقّ بشكل دائم، وبالتالي على صحّة الفهم الإيجابيّ والبنّاء لمفهوم الانتظار، ولا يساعد مدّعى أرباب الانتظار الهدّام، بل يكون دليلاً إضافيّاً على بطلان ما ذهبوا إليه!

(١) أصول الكافي، ج١، كتاب الحجّة، باب التمحيص والإمتحان، ح ٣.

خلاصة الدرس

١ ـ تجمع الفرق الإسلامية على أنّ مستقبل التاريخ هو مستقبل مشرق، حيث ستظهر شخصيّة باسم المهدي تحقّق الإنتصار لقوى الحقّ على قوى الباطل في الجولة الأخيرة من الصراع، وهذا هو الفرج الذي وَعدت به جميع الكتب السماويّة، وجُعِل انتظاره من أفضل العبادات. وبذلك يبعث الإسلام الأمل في مستقبل البشريّة، فتكون نظرته تفاؤلية بخلاف بعض الرؤى التشاؤميّة لمستقبل التاريخ.

٢ ـ إنّ الفرج الذي يبشّر به الإسلام هو بشرى لجميع الفئات الإنسانيّة في هذا العالم، فلا يختصّ بفئة معيّنة.

٣ ـ تمثّل مسألة نهضة المهديّ عليه السلام قضيّة تتمتّع بخصائص فلسفيّة وإجتماعيّة كبرى، فإنّ لهذه النهضة خصائص ثقافيّة وتربويّة فضلاً عن السياسيّة والاقتصاديّة...

٤ ـ هناك نوعان من الانتظار:

الأول: الانتظار الهدّام:

وهو انتظار يبعث على الخمول والكسل ويدعو إلى عدم العمل، حيث لا يرى لأنصار الحق والمصلحين العاملين أيّ دور في عملية الظهور، بل بنظره إنّ المجاهدين والمصلحين يشكلون عاملاً مساهماً في تأخيره، لذا يدين أصحاب هكذا تصوّر الإصلاحات، فيما ينظرون إلى انتشار الفساد والظلم بعين الارتياح

والرضا: فهذه الامور بنظرهم هي التي تعجّل في حصول الفرج. فهؤلاء يرَون ان عمليّة الظهور هي عمليّة انقلاب الأوضاع التي وصلت إلى نهاية الانحدار والفساد فتحلّ مكانها الحكومة المهدويّة.

وهو بذلك يشترك في نظرته للتاريخ مع الاتجاه الديالكتيكيّ في عنصره الأساسيّ، وهو قيام تكامل التاريخ على صراع المتناقضات، وفي مجموعة من نتائجه من ضرورة تشديد الفوضى وإشاعة الفساد، ومعارضة الإصلاحات.

وهذا الانتظار مخالف للتعاليم الإسلامية والمفاهيم القرآنية، ولذا لا يمكن الالتزام به.

الثاني. الانتظار البنّاء:

وهذا الانتظار يدعو إلى العمل والجهاد والإصلاح ونصرة الحقّ، واتباع أحكام مفاهيم الإسلام في كلّ زمان ومكان، ويعطي دوراً أساسيّاً لإرادة الإنسان في عملية تكامل التاريخ.

وهو يقوم على أساس ضرورة استمرار صراع الحقّ مع الباطل، مع إعطاء دور أساسيّ لأنصار الحق في مسألة التمهيد للمهدي ﷺ.

ويستند هذا الانتظار إلى الآيات والروايات، ويراعي مفاهيم وتعاليم الإسلام الصالحة لكلّ زمان ومكان.

الفهرس